الهزيمة النفسية، ركيزة في إطالة عُمر "إسرائيل".

عماد أبو عوّاد

الكف لا يُناطح مخرزاً، هم يمتلكون قوّة كبيرة، اختبئ في البيت لئَلا يأتيك اليهود، هم أذكياء جداً إلى حدٍ بعيد، يُسيطرون على العالم ويديرونه بالخفاء، هذه عينة من المقولات الدارجة على السنتنا، والتي باتت تُشكل لدى جزءٍ "منّا" حقيقة ثابتة، لتبرير مساحة العجز والتخاذل، ولتقزيم أيٍّ من المشاريع المناهضة للكيان.

يقول المؤرخ الصهـــيوني مردخاي بار اون، لقد اختلقنا أكذوبة أقلية يهودية مقابل أغلبية عربية، في إشارة لحرب عام 1948، حيث أكد أنّ الجيش الصـــهيوني كان ثلاثة أضعاف ذلك الذي بعثته الدول العربية، رغم أنّ الدول العربية كان عددها يقترب من 50 مليون حينها. وفي ظل الحديث الصهيوني عن الأساطير التي ابتدعوها، نجد من بيننا من يروج لها، ويُحاول تكذيب عدم صحتها.

حتى في حرب تشرين أول عام 1973، وفي ظل التقدم الكبير للقوّات المصرية في الساحة الحربية، يبدو أنّ مفعول الهزيمة النفسية وضع حدّاً لهذا التقدم، الذي انتهى بذات النتائج، وبدل أن يُستغل في إطار تفعيل رفع العزيمة العربية، وتقزيم قوّة الاحـــتلال، انهار العرب وسيقوا صاغرين إلى التطبيع والتسليم.

الهزيمة النفسية في بلادنا تتبناها شريحة بعينها لمآرب متنوعة، لكنّها في نفس الوقت، باتت شمّاعة تُعلق عليها سياسة الأنظمة القمعية في الدول العربية، فبعد أن اشبعت تلك الأنظمة شعوبها استبداداً، على قاعدة أنّها تتجهز لمواجهة الكيـــان الغاصب، باتت تُشبعه الاستبداد على قاعدة عدم قُدرة مواجهته.

وبعد أن وُجد من رفع في وجه الكيان راية التحدي، وبات يُقارعه ميدانياً وعقلياً، انحرفت بوصلة تلك الأنظمة باتجاه الخلاص منه، فالمُنهزم نفسيا، لا يرى مساحةً سوى لمن يُشاركه تلك الرؤية، التي تُبرر له الانبطاح، وتُشبعه قناعةً بأنّ هذا أفضل ما يُمكن.

حتى على المستوى الشعبي، هُناك من ترسخت لديه هذه القناعات، فتسمع ما يُخالف الحقائق على الأرض، ففي الوقت الذي تتحدث فيه مُعطيات الدول المتقدمة، عن أنّ الطلاب في الكيان، يحتلون المرتبة الأخيرة في الرياضيات والعلوم بالمقارنة مع نظرائهم في الدول المتقدمة، نجد أنّ الفكرة لدينا مُعاكسة. وأكثر ما يريبنا حينما نكتب عن مكامن ضعف الكيان، وحجم التشرذم الداخلي، نجد مساحة من النقد الموجه، في إطار استنكار ذلك، والحديث عن علو الكيان، وازدياد قوّته، ويكأنّ منّا من يبني في مخيلته للكيان هالةً يستكثر على نفسه أن تتراجع.

حين خاضت غزة أربع حروب ضارية، ووقفت صامدةً أمام الاحـــتلال، حتى أنّ عاموس يدلين رئيس معهد دراسات الأمن القومي، وصف الحرب بأنّها تعادل استراتيجي، تسللت الهزيمة النفسية في نفوس البعض، وماذا استفدنا من الحرب، ماذا قدّمت، والأبعد من ذلك، هناك من ذهب باتجاه أنّ "إسرائيل" لو ارادت لدخلت غزة واخضعتها!

الكيان نفسه ركب موجة الهزيمة النفسية، فتراه في التعاطي مع العقلية العربية، ينظر إليها باستحقار واستهانة، ويبني الكثير من خططه الاستراتيجية ليس في إطار المواجهة وتحقيق النصر، إنّما في

اتجاه منع خصومه من مجرد التفكير بمواجهته، من خلال تثبيت الهزيمة النفسية في عقول الشريحة الحاكمة تحديداً.

ويُمكن فهم هذا التفكير لدى الكيان، من خلال سلوكه قُبيل حرب 1967، حيث أنّ أخذه زمام المبادرة في الحرب، والبدء بقصف المطارات العربية، اعتمد وفق الأرشيف الإسرائيلي المنشور في العام 2017، على أنّ العرب يستعرضون ولا يريدون الدخول في الحرب، وهذا ما دفعه لأخذ الضربة الاستباقية. والصورة كان مختلفة تماماً، حيث أنّ قناعته هذه قبل حرب 1973، لم تكن حقيقة، الأمر الذي أدى إلى خسائر "إسرائيلية" كبيرة في البداية، قبل أن يتقهقر العرب مرة أخرى، لأسباب لا يُمكن فهمها إلّا في إطار الشعور بالدونية والعجز.

هُنا لا نُقلل من قوّة العدو، لكن فينا كذلك قوّة أربكته، وفينا عقول صنعت من هالة قوّته اكذوبة، وفينا من يرى فيه كيان زائل لا محالة، ومن بيننا للأسف من لا يريد لتآكل صورة الكيان أن تترسخ، فهناك من بقاءه على الكرسي مرتبط بوجود الاحتــلال، وهناك من يرى بأنّ النصر عليه إن لم يكن على يديه فعليه تقزيم ذلك.

إنّ هزيمة البعض نفسياً هي التي تمنح "إسرائيل" شريان استمرار بقاءها، وإنّ أكثر ما يقض اركانه أولئك الذين يصلون الليل بالنهار عملاً من أجل الخلاص منه، فهم باتوا يغرسون فيه الهزيمة، ويستنزفونه، وهذا الأمر لا تُخفيه قيادة الكيان، بل يستنكره ويُحاول تغطيته، من تغلغلت فيه الهزيمة النفسية، حتى باتت مأكله ومشربه.